الآفة الحادية عشرة
ضيق الأفق أو قصر النظر

والآفة الحادية عشرة التى يبتلى بها كثير من العاملين، ويعانى منها العمل الإسلامى أشد المعاناة ، إنما هى: « ضيق الأفق ، أو قصر النظر » .

وحتى نسهم فى اقتلاع هذه الآفة من نفوس من ابتلوا بها، وتحصين الآخرين ضدها ، ويسلم من شرها العمل الإسلامى، فإنه لابد من تقديم تصور دقيق واضح لها على النحو التالى:

أولا: مفهوم ضيق الأفق ، أو قصر النظر :

ضيق الأفق لغة : الأفق فى اللغة واحد الآفاق التى هى الجهات أو النواحى[١] ، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٢]، والنظر هو تأمل الشىء بالعين[٢] ، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية]، وهو كذلك تقليب البصيرة لإدراك الشىء ورؤيته [٣] ، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥] . وتبعا لما ذكرنا، فإن ضيق الأفق فى اللغة ، يعنى انحسار أو انكماش جهة أو ناحية النظر والتأمل ، وكذلك قصر النظر يعنى ضعف أو اختلال البصر أو البصيرة أو هما معا .

ضيق الأفق اصطلاحا : أما مفهوم ضيق الأفق أو قصر النظر فى الاصطلاح الشرعى والدعوى : فهو ضعف أو خلل فى البصيرة ، يؤدى إلى حصر التفكير أو الرؤية فى حدود ضيقه لا تتجاوز المكان والزمان ، أو بعبارة أخرى ، هو ضعف أو خلل فى البصيرة يؤدى إلى رؤية القريب وما تحت القدمين فقط، دون النظر إلى البعيد، ودون تقدير الآثار والعواقب، قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

---

(١) انظر: الصحاح فى اللغة والعلوم ص ٢٧، وجامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ٢٥/ ٤ بتصرف كثير.
(٢) انظر: بصائر ذوى التمييز ٥ / ٨٢ ، والصحاح فى اللغة و العلوم ص ١١٧٩ .
(٣) انظر : بصائر ذوى التمييز ٥/ ٨٢ .

ثانيا : أسباب ضيق الأفق ، أو قصر النظر :

ولضيق الأفق أو قصر النظر أسباب تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه، نذكر منها :

١ـ النشأة الأولى :

فقد ينشأ الإنسان فى بيئة لا تهتم كثيرا بتنمية الذّكاء الفطرى أو المواهب لدى أفرادها ، وتكون العاقبة انحسار دائرة التفكير أو النّظر والتأمّل إلا من رحم اللّه ـ عزّ وجلّ .

٢ـ صحبة نفر من ذوى الأفق الضيق والنظر القصير:

وقد يحيط بالإنسان صحبة ذات أفق ضيق ونظر قصير فتسرى آثار ذلك إلى هذا الإنسان ، فإذا به يواجه كلّ المواقف بنفس النّمط ، وعلى هذا المنوال، إذ المرء على دين خليله .

٣ـ الانزواء أو العزلة :

وقد يؤثر الإنسان الانزواء أو العزلة ،إما لعدم القدرة على التوفيق بين الفردية والجماعية ، وإما إيثارًا للعافية والسلامة ، ومثل هذا وإن جنى كثيرا من ثمار العزلة أو التفرد، فإنه يخسر أول ما يخسر الخبرة أو التجربة، تلك التى تستفاد من ملازمة الجماعة والارتماء فى أحضانها ، والتى تساعد على اتساع الأفق ، وبعد النظر ، وحين يخسر الإنسان الخبرة أو التجربة ، فإنه يظل ذا أفق ضيّق ، ونظر قصير محدود .

٤ـ عدم الفهم لدور أو لرسالة الإنسان فى الأرض :

وقد لا يفهم الإنسان دوره أو رسالته فى الأرض ، من أنه خليفة فيها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] .

وأن هذه الخلافة إنما هى سيادة: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، وعبودية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات] .

وإن تحقيق هذا الدور أو الرسالة يقتضى التبصّر والتدبّر: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات] .

والعمل الدائم بالليل والنهار: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

[التوبة : ١٠٥]

وقد لا يفهم الإنسان ذلك كله ، فيقعد وينام، أو ينطلق على غير هدى وبصيرة، وأنّى لهذا أن يكون واسع الأفق ، أو بعيد النظر ؟

٥ـ عدم الفهم لحقيقة ومضمون الإسلام :

قد لا يفهم المسلم حقيقة ومضمون الإسلام ، من أنه دين شامل للحياة جميعا، وإلى قيام الساعة : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾

[المائدة : ٣]

وأن الدعوة إليه، والتمكين له فى الأرض يقتضى الحكمة التى من لوازمها اتساع الأفق ، وبعد النظر ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] . ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

[النحل : ١٢٥]

قد لا يفهم المسلم ذلك فيدعو إلى هذا الإسلام، ويعمل على التمكين له دون أن يجهد نفسه فى تحصيل الحكمة، وأنى لمن حرم الحكمة أن يكون واسع الأفق بعيد النظر؟

٦ـ عدم الإلمام بواقع الأعداء ، وأسلوبهم فى العمل :

وقد يكون المسلم غير ملمّ بواقع الأعداء ، وأسلوبهم فى العمل ، من أنهم كثرة ، وأن لديهم العتاد والعدد ، وأن أسلوبهم فى العمل يقوم على الدهاء والمكر والخديعة ، قد لا يلمّ المسلم بذلك كله ، فتضيع عليه فرصة اكتساب الخبرة والدراية والتجربة ، وأنّى لمن لم يكتسب خبرة ولا دراية ، ولا تجربة أن يكون واسع الأفق بعيد النظر؟

٧ـ الإعجاب بالنفس ، بل الغرور والتكبّر :

وقد يكون الإنسان معجبا بنفسه، مغرورا ، متكبّرا ،فيحمله ذلك على الترفّع، والاستعلاء، أن يكتسب من غيره خبرة، أو مهارة أو تجربة ،فيبقى طول حياته محدود الأفق ، قصير النظر .

٨ ـ الغفلة عن العواقب والآثار المترتبة على ضيق الأفق أو قصر النظر :

وقد يكون المسلم غافلاً عن العواقب أو الآثار المترتبة على ضيق الأفق أو قصر النظر، فيقنع بما هو عليه دون أن يجهد نفسه ، أو أن يعمل فكره فى تلاشى هذه العواقب ، أو تلك الآثار، ومثل هذا يظل طول حياته ضيق الأفق، محدود النظر.

٩ـ الجهل بأخبار وحوادث الماضين :

وقد يكون المسلم جاهلا بأخبار وحوادث الماضين ، وكيف كانوا يتصرفون بإزاء المواقف المباغتة أو المفاجئة، ومثل هذا يعيش محروما من الخبرة والدراية والتجربة، التى هى أساس اتساع الأفق ، وبعد النظر ، وصدق اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ الذى يقول عن أخبار وحوادث الماضين : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِى الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١] . ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾ [الأعراف] .

١٠ـ ضعف الصّلة باللّه ـ عزّ وجلّ :

وقد يكون المسلم ضعيف الصّلة باللّه ـ عزّ وجلّ ـ بأن يكون غير محترز من المعاصى والسيئات ، لاسيّما الصغائر منها، أو أن يكون مفرّطا فى عمل اليوم والليلة، أو أن يكون مهملا لجانب فعل الخيرات ، فيعاقب على ذلك كلّه بالحرمان من الحكمة التى هى أساس سعة الأفق ، وبعد النظر .

ولعل ذلك هو المفهوم من قوله تعالى فى كتابه الحكيم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

ومن قوله ﷺ فى الحديث القدسى : « يقول اللّه تعالى: من عادى لى وليّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلىّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنّه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله تردّدى عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته » (١) .

ثالثا : مظاهر أو سمات ضيق الأفق أو قصر النظر :

ولضيق الأفق، أو قصر النظر مظاهر أو سمات يعرف بها وتدل عليه، نذكر منها:

١ـ التبرّم الشديد بالمنهج الدعوى أو الحركى الذى ارتضته الحركة الإسلامية المعاصرة من أجل التمكين لمنهج اللّه فى الأرض، ووصف هذا المنهج بالتخلف، وعدم القدرة على مواكبة ظروف ومستجدات العصر، بل ووصف القائمين عليه بالركون إلى الدنيا إيثارًا للعافية والسلامة .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الرقاق: باب التواضع ٨/ ١٣١، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا به ، وأخرج أحمد فى: المسند ٦ / ٢٥٦ نحوه مرفوعًا، من حديث عائشة رضي الله عنها .

٢ـ حصر الجهد فى جوانب، وإن كانت مفيدة إلا أنها ثانوية، تستهلك طاقة كبيرة، ووقتا طويلا، مثل العمل على بناء مسجد، أو إنشاء جمعية خيرية أو إلقاء موعظة، أو تأليف كتاب، أو قراءة ومطالعة، أو عيادة مريض، أو محاولة جمع الناس على رأى واحد فى مسائل الفروع، أو المسائل المختلف فيها، وهكذا دواليك.

٣ـ الصلابة أو الشدة عند التقصير فى سنّة من السّنن، أو هيئة من الهيئات، والسكوت وعدم تغير القلب، أو تمعّر الوجه عند تضييع فريضة من الفرائض، أو واجب من الواجبات ، فتراه مثلا يقيم الدنيا ولا يقعدها على من لا يهتم بتقصير ثيابه، أو لا يحافظ على السّواك ، أو لا يلبس الساعة فى اليد اليمنى، ولا تتحرّك فيه شعرة عندما يرى حكم اللّه معطّلا فى الأرض، وأهل الباطل يصدون عن سبيل اللّه، ويسومون أولياء اللّه سوء العذاب .

٤ـ علاج المشكلات التى تعانى منها الأمة الإسلامية بطريق تعاطى المسكنات دون البحث عن أصل الداء ، وسبب العلة ، ثم اجتثاث هذا الأصل أو هذا السبب من جذوره، فمثلا نسمع ونرى علاج مشكلة الحانات والبارات، ومراكز الفيديو الداعرة ، إنّما يكون بالتكسير، وإشعال الحرائق ، وحقيقة العلاج يجب أن ينصرف إلى إيجاد السلطان الذى يقيم شرع اللّه فى الأرض ، فإن اللّه يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، ثم إحداث وعى فى الأمة يغيّر العرف العام ، ويجعلها تحمل مسئولية أو أمانة تطبيق شرعة اللّه بنفسها .

٥ـ استعجال النتائج، أو قطف الثمار قبل أوانها، وقد قيل : من استعجل الشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه .

رابعا : آثار ضيق الأفق ، أو قصر النظر :

ولضيق الأفق ، أو قصر النظر آثار سيئة ، وعواقب وخيمة على العاملين وعلى العمل الإسلامى ، وهاك طرفا منها :

أـ آثار ضيق الأفق على العاملين :

فمن آثار ضيق الأفق أو قصر النظر على العاملين :

١ـ تبديد الجهود ، وإهدار الطاقات :

فالأثر الأول : تبديد الجهود وإهدار الطاقات فى أمور نافعة ومفيدة لكنها ثانوية بل هامشية، وإذا بدّدت الجهود، وأهدرت الطاقات فى مثل هذه الأمور، فإن المسلم العامل سيعجز بعد ذلك ، ويفقد القدرة على مواجهة المهام الجسام ، والتبعات الضخمة.

ولعل هذا الأثر هو المفهوم من توجيه القرآن للمسلمين أوّل مرّة : أن يقيموا الإسلام فى أنفسهم، وأن يحسنوا الترابط فيما بينهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى]، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس]، دون أن يستجيبوا لأى إثارة .

أو يردوا على أى أذىً أو اضطهاد يوجه إليهم من عدوهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ٧٧] ، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

[الحجر]

كل هذا من أجل أن تنمو طاقاتهم، وتتضاعف جهودهم، بل ويحتفظ بهذه الجهود، وتلك الطاقات لتوجّه نحو النافع والمفيد ، فى الوقت المناسب وفى اللحظة المناسبة، وقد كان . . . فإن أولئك الذين جاهدوا أنفسهم وترابطوا فيما بينهم، وأوذوا فصبروا طوال المرحلة المكّية، وسنتين من المرحلة المدنيّة، نجحوا فى أول مواجهة مع عدوّهم فى بدر ، رغم عدم التكافؤ بين الفريقين ، لا فى العدد، ولا فى العُدد، وسجّلت لهم صور تدل على مدى امتلائهم وشحنهم من داخلهم ضد أعداء اللّه وأعدائهم، ولعل من أبرز هذه الصور ما صنعه بلال بن رباح مع أمية بن خلف ؛ إذ يقول عبد الرحمن بن عوف :

كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظنى فى صاغيتى (خاصتى) بمكة، وأحفظه فى صاغيته بالمدينة ، فلمّا ذكرت الرحمن ،قال : لا أعرف الرحمن، كاتبنى باسمك الذى كان فى الجاهلية ، فكاتبته عبد عمرو ، فلما كان فى يوم بدر ، خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس ، فأبصره بلال ، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار ، فقال : أمية بن خلف !! لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار فى آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا ، خلّفت لهم ابنه لأشغلهم ، فقتلوه ، ثم أتوا حتى يتبعونا ، وكان رجلا ثقيلا، فلما أدركونا، قلت له: ابْرُك ، فبرك، فألقيت عليه نفسى لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتى حتى قتلوه ، وأصاب أحدهم رجلى بسيفه [١] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الوكالة : باب إذا وكل المسلم حربيا فى دار الحرب أو فى دار الإسلام جاز ٣ / ١٢٩ من حديث صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه ، عن جده عبد الرحمن بن عوف t مرفوعا به ، وزاد فى آخره :
« وكان عبد الرحمن يرينا ذلك الأثر فى ظهر قدمه » .

٢ـ اليأس والقنوط :

والأثر الثانى هو اليأس والقنوط ، وذلك أن ضيّق الأفق أو قصير النظر، سيواجه فى طريقه كثيرا من العقبات والصعاب، ولن يستطيع ـ لضيق أفقه أو لقصر نظره ـ استيعاب هذه العقبات ، وتلك الصعاب ، ومحاولة التغلب عليها ، وتكون النتيجة : اليأس والقنوط ، بله القعود عن أداء الدور والقيام بالواجب .

ولعمرى ذلك هو أهم ما يسعى إليه أعداء اللّه ، ليخلو لهم الجو، ويفسح أمامهم المجال ، (خلا لك الجو، فَبِيضِى واصفِرى) (١) .

٣ـ قلة ـ بل تلاشى ـ كسب الأنصار والمؤيدين :

والأثرالثالث إنما هو قلة بل تلاشى ـ كسب الأنصار والمؤيدين، ذلك أن ضيّق الأفق أو قصير النظر نادرا ما يصادفه التوفيق والنجاح، ومن يفقد التوفيق والنجاح لا يبقى لديه ما يغرى به الناس، حتى يكسب منهم نصيرا ، أو على الأقل مؤيدا ، والواقع يؤيد ذلك، فكم من ضيّق أفق أو قصير نظر، يعيش ويموت، وليس من حوله إلا أفراد يعدون على الأصابع، فضلا عن نفور كثير من الناس منه، وإعراضهم عنه .

٤ـ الحرمان من التوفيق الإلهى :

والأثرالأخير إنّما هو الحرمان من التوفيق الإلهى، ذلك أن ضيّق الأفق أو قصير النظر، يريد من كل الناس السّير وفق تصوّره الضيّق، ورؤيته المحدودة، ولن يستجيب له الناس، وحينئذ يسلقهم بألسنة حداد، ويجعل من لحومهم غذاء شهيا، وأنّى لمن يلغوا فى أعراض الناس، ويعيش على لحومهم، أن يمنحه ربّه توفيقا أو تأييدا ؟

ب ـ آثار ضيق الأفق على العمل الإسلامى :

ومن آثار ضيق الأفق أ و قصر النظر على العمل الإسلامى :

---

(١) هذا مثل يضرب فى الحاجة يتمكن منها صاحبها ، وأول من قال ذلك : طرفة بن العبد الشاعر ، ذلك أنه كان مع عمه فى سفر وهو صبى ، فنزلوا على ماء ، فذهب طرفة بفخيخ له، فنصبه للقنابر، وبقى عامة يومه فلم يصد شيئا ، ثم حمل فخه ، ورجع إلى عمه ، وتحمّلوا من ذلك المكان ، فرأى القنابر يلقطن ما نثر لهن من الحب فقال :

يـا لـك من قنبرة بمـعـمـر — خـلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقّـرى مـا شئت آن تنقّـرى — قد رحل الصياد عنك فابشـرى
ورفـع الفـخ فمـاذا تحـذرى — لا بد من صيدك يوما فـاصبرى

انظر : مجمع الأمثال للميدانى ١/ ٢٣٩ ، ٢٤٠ المثل رقم (١٢٦٨) .

١ـ التشويه :

ذلك أن ضيق الأفق ، وقصر النظر سيوجّه العمل الإسلامى إلى علاج المشكلات عن طريق المسكّنات ، دون النّظر فى الأسباب ، وبترها من جذورها على النحو الذى ذكرنا آنفا ، ومثل هذا الأسلوب فى العمل غير مجد ، فضلا عما سيصاحبه من طول الطريق ، وكثرة التكاليف ، وحينئذ يجدها أعداء اللّه فرصة للتشويه ، وتقديم الإسلام وصورة العمل له على أنّهما غير قادرين على مواجهة مشكلات العصر ، ووضع الحلول المناسبة لها.

٢ـ المصادرة :

وذلك أن العمل الإسلامى يواجه كثيرا من العقبات والصعاب التى يضعها أعداء اللّه فى طريقه ، وضيق الأفق أو قصر النظر سيؤدى إلى الصدام بهذه العقبات وتلك الصعاب، وعدم القدرة على استيعابها أو التحايل عليها، وحينئذ تكون المصادرة وعدم السماح بالاستمرار .

٣ـ الضرب أو على الأقل الإجهاض :

وذلك أن ضيق الأفق أو قصر النظر سيحرم العمل الإسلامى من الأنصار والمؤيدين، بل من التوفيق والعون الإلهى ، ويوم يحرم العمل الإسلامى من ذل ، فإنه يسهل على أعداء اللّه ضربه، أو على الأقل إجهاضه، والرجوع به إلى الوراء عشرات السنين .

خامسًا : علاج ضيق الأفق ، أو قصر النّظر :

هذا ، ويمكن علاج ضيق الأفق ، أو قصر النظر ، بل والتحصن ضدّه، باتباع الأساليب التالية :

١ـ التعويد على حمل المسئولية فى الصّغر، ومنذ نعومة الأظفار، فإن ذلك يكسب الإنسان كثيرا من الخبرات والتجارب ، وينمّى لديه مواهبه أو ذكاءه الفطرى ، فإذا شبّ بعد ذلك ، كان واسع التصور بعيد الرؤية.

ولنا فى أنبياء اللّه ورسله ، لاسيما محمدﷺ الأسوة والقدوة، إذ حملوا بأنفسهم مسئولية الحياة فى الصغر ، ومنذ نعومة أظفارهم ، الأمر الذى ساعد على تنمية مواهبهم ، وقدرتهم على سياسة النفوس وإصلاحها بعد الرّسالة .

وقد لفت النبى ﷺ النظر إلى هذا الأسلوب التربوى حين قال : « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم » فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : « نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكّة » (١) .

٢ـ اقتلاع النفس من بين ذوى الأفق الضيق ، والنظرة المحدودة ، والارتماء فى أحضان أصحاب الخبرات والتجارب ، الذين اتسموا بسمة التصور الواسع ، والرؤية البعيدة ، وملازمة هؤلاء دوما ، مع التواضع وخفض الجناح لهم ، فإن ذلك يؤدى بمرور الزمن إلى تنمية المواهب الفطرية ، وتعلم الحكمة التى يعدّ اتساع الأفق أوبعد النظر أمارة من أماراتها ، وسمة بارزة من سماتها .

٣ـ الفهم الدقيق لرسالة الإنسان ودوره فى الأرض ، وسبيل القيام بهذا الدور وهذه الرسالة .

٤ـ الفهم الدقيق لحقيقة ومضمون الإسلام ، وسبيل العمل أو التمكين له فى الأرض ، فإنّ هذا الفهم كثيرا ما يحمل على جمع الهمّة من أجل التطبيق والتنفيذ ، الأمر الذى يساعد على سعة الأفق ، وبعد النظر .

٥ـ الإلمام التام بواقع الأعداء ، وسبيلهم أو منهاجهم فى العمل ، فإن هذا الإلمام كثيرا ما يحمل صاحبه على قدح زناد الفكر ، والاحتيال من أجل إبطال هذه السبيل ، أو هذا المنهج ، وذلك هو ما نعنيه بسعة الأفق ، وبعد النظر .

٦ـ معايشة رسول الله ﷺ فى سيرته ، فإنها حافلة بالكثير من المواقف التى تساعد على سعة الأفق وبعد النظر ، وحسبنا من هذه المواقف ما أثر عنه ﷺ من أنه لم يحطم الأصنام الموجودة فى جوف الكعبة وعلى سطحها إلا فى العام الثامن من الهجرة يوم فتح مكّة ؛ لأنه كان يرى أن البدء بتحطيم هذه الأصنام قبل تحطيم الأصنام الموجودة بداخل النفوس ، تلك التى توجه وتدعُو إلى الشرك والإثم والرذيلة ، سيساعد على إعادة بناء هذه الأصنام من الذهب ، بدلا من الحجارة ، بل سيضاعف من عددها ، لذا

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الإجارة : باب رعى الغنم على قراريط ٣/ ١١٥ ، ١١٦ ، وكتاب الأطعمة : باب الكباث . وهو ثمر الأراك ٧/ ١٠٥ ، وكتاب الأنبياء : باب يعكفون على أصنام لهم ٤/ ١٩١ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الأشربة : باب فضيلة الأسود من الكباث ٣/ ١٦٢١ رقم (٢٠٥٠) ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب التجارات : باب الصناعات ٢/ ٧٢٧ رقم (٢١٤٩) ، ومالك بلاغا فى : الموطأ : كتاب الجامع : باب ما جاء فى أمر الغنم ص ٦٨٩ رقم (١٧٧٠) ، وأحمد فى : المسند ٣ / ٣٢٦ ، كلهم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعا بنحوه ، إلا أن الرواية الأولى عند البخارى وابن ماجه ، فإنها فيهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعا به .

تركها ، وعمد إلى إصلاح النفوس من داخلها، تطبيقا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم ﴾ [الرعد : ١١] .

حتى إذا صلحت هذه النفوس، واستقامت على منهج اللّه ، وترابطت فيما بينها قادها ﷺ وفتح بها مكّة ، وحطم بها هذه الأصنام .

وكذلك ما أثر عنه ﷺ فى صلح الحديبية، إذ قبل هذا الصلح، رغم القسوة التى انطوت عليها شروطه حتى ضايق ذلك كثيراً من الصحابة وعلى رأسهم عمر رضي الله عنه ؛ لأنه ﷺ كان ينظر بعين النبوّة، وكان يرى أن هذه الشروط، وإن بدا أنها قاسية، فإنها ستسفر عن خير كثير للمسلمين ، وذلك هو ما أكّده الواقع، فقد زاد عدد المسلمين بعد الحديبية إلى أضعاف أضعاف ما كانوا قبله، حسبنا أن عدد المقاتلين فى غزوة الخندق، وهى التى كانت فى السنة الخامسة من الهجرة ، كان ثلاثة آلاف ، وإذا به يصل يوم فتح مكة إلى عشرة آلاف، وما حدث هذا إلا بسبب التزاور والاختلاط بين الفريقين ، واطّلاع المشركين على أخلاق المسلمين وأحوالهم؛ نتيجة الهدنة ، ووضع الحرب بين الفريقين لعشر سنوات .

وكذلك جاء المشركون بعد فترة من إبرام هذا الصلح يطالبون بإلغاء شرط: «ومن جاء إلى النبى ﷺ مسلما، ردّه إلى المشركين » بعد ما أذاقهم أبو بصير ورفاقه الأمرّين، وبعد ما قطعوا طريق تجارتهم حتى اضطروهم إلى أكل الجيف والميتة ، وأوراق الشجر من شدة الجوع .

هذه المواقف وغيرها تعلّم كيف تكون سعة الأفق ، وبعد النظر .

٧ـ حسن الصّلة باللّه ـ عزّ وجل ـ من ترك للمعاصى والسيئات ـ صغيرها وكبيرها ـ ومن المواظبة على عمل اليوم والليلة، ومن التفانى فى فعل الخيرات، فإن ذلك يورث الحكمة التى عنوانها : سعة الأفق ، وبعد النظر .

٨ ـ دوام الاطلاع على خبرات وتجارب الماضين ، فإنها مشحونة بالكثير والكثير الذى يكسب الخبرات ، والتجارب، وينمّى المواهب والقدرات، وحسبنا فى هذا المقام، ما أثر عن الحافظ أبى الفرج المعروف بابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) إذ سأله رافضى فى مجلس وعظ عام، قائلا له: يا سيدى، نريد كلمة ننقلها عنك، أيّهما أفضل، أبو بكر أو علىّ ؟

وأدرك أبو الفرج خبث السؤال ، وخطورته ، فرد على الفور : أفضلهما من كانت بنته تحته [١] . وهذه عبارة محتملة لوجهين ؛ لذا فهى ترضى الفريقين : الرافضة، وأهل السنة ، وما كان هذا الجواب إلا لسعة الأفق ، وبعد النظر .

وحسبنا أيضا ما قاله الشيخ حسن البنّا ردّاً على مؤلّف كتاب : « أحداث صنعت التاريخ »، وقد حمل إليه مقالا كتبه يبطل فيه المقال الذى نشره سيّد قطب فى جريدة الأهرام فى أواخر الثلاثينات حيث دعا سيد قطب فى هذا المقال دعوة صريحة إلى العرى التام وأن يعيش الناس عرايا كما ولدتهم أمهاتهم . قرأ الشيخ حسن البنا الرّد ، ثم أطرق طويلا ـ على غير عادته ـ والتفت إلى كاتب مقال الرّد ، واسمه « محمود » وقال له : يا محمود، إن المقال متين الأسلوب ، قوىّ الحجّة ، جدير أن ينشر، وقد سبق أن أجزت لك بعض ما نشرته فى بعض الصحف اليومية. . . ولكن فى هذه المرّة مرّت بخاطرى عدّة خواطر ، أحب أن أعرضها عليك ، فقال :

أولا :لا شك أن فكرة المقال مثيرة ، تجرح قلب المؤمن.

ثانيا : كاتب هذ المقال شاب متأثر بالبيئة التى تعرفها، ونعرفها، وهى التى تغذّيه بمثل هذه الأفكار .

ثالثا : إن هدف الشاب من كتابة هذا المقال ليس مجرّد التعبير عمّا يؤمن به ، وإنما هو محاولة جذب الأنظار إليه ، على أساس عُرْفهم من أنّ الغاية تبرر الوسيلة.

رابعا: إن قرّاء « الأهرام » عدد محدود بالنسبة لسكان هذه البلاد ـ يعنى بها مصر ـ وليس كل قرّاء « الأهرام » قد قرأوا هذا المقال ، فأكثرقراء الأهرام لا يقرءون فيه إلا الأخبار، وأكثر الذين قرءوا المقال لم يستوعبوا فكرته ؛ لأنهم اعتادوا قراءة المقالات غير الرئيسة قراءة عابرة .

خامسا: إذا نشرنا ردّا على هذا المقال فى « الأهرام » كانت لذلك النتائج الآتية :

أ ـ سيثير نشر الرد اهتمام الذين لم يقرءوا المقال الأصلى إلى البحث عنه وقراءته، كما سيدفع الذين قرأوه قراءة عابرة أن يقرأوه مرة أخرى قراءة متأنية،وستبرز بذلك فكرة المقال فى مختلف المجتمعات وتكون موضوع مناقشة واهتمام ،ونكون بذلك قد عملنا ـ من حيث لا نقصد ـ على تحقيق مأرب صاحب المقال ، من جذب الأنظار إليه، وجعل اسمه على الألسنة .

---

(١)انظر : سير أعلام النبلاء للذهبى ٢١ / ٣٧١ .

ب ـ نكون ـ من غير قصد ـ قد تسبّبنا فى لفت الأنظار إلى لون من الرذائل ربما علقت به بعض النفوس الضعيفة ، ولو لم نرد عليه لمرّت الدعوة إلى هذه الرذائل فى غفلة من الناس،غير معارة أى اهتمام، ولطمرت فى طيات النسيان.

جـ ـ الردّ نوع من التحدّى يخلف فى نفس المرء المردود عليه نوعا من العناد، وهذا العناد يجعله يتعصّب لرأيه مهما اقتنع بخطئه ، ونكون بذلك قد قطعنا عليه خطّ الرجعة ، وفى هذا خسارة نحن فى غنى عنها .

وهـذا الكاتب شاب ، وتـرك الفرصـة أمامـه للرجوع إلى الحقّ خير من إحراجه، وما يدريـك لعلّ هذا الشاب يفيق من غفلتـه ،ويفىء إلى الصواب، ويكـون ممّن تنتفع الدعوة بجهوده فى يوم من الأيام، ثم قال: ما رأيك فى هذه الخواطر؟ قلت ـ أى كاتب الرد : إنها مقنعة تمام الإقناع . . . ومزّقت الردّ بين يديه[1] .

وتمر الأيام، ويصير «سيد قطب» ـ رحمه اللّه ـ علما من أعلام الدعوة الإسلامية، بل شهيدا من شهدائها .

ولعل السر فى ذلك هو توفيق اللّه أولا، ثم هذه البصيرة النافذة ، والرأى الملهم اللذين كان يتمتع بهما الشيخ حسن البنا ـ رحمه اللّه تعالى .

وحسبنا كذلك ما قاله داعية ملهم لشابّين من شباب هذ ا العصر ـ الملتزم بالإسلام عن ضيق أفق وقصر نظر ـ وقد رآهما يختلفان على مقدار الممسوح من الرأس، أهو شعرات، أم الربع، أم النصف ، أم الرأس كله ؟ ووصل الاختلاف إلى حد التراشق بالكلام، بل إلى حد الضرب ، قال لهما : احميا هذه الرأس من القطع أولا،فإن هناك مؤامرة من قبل أعداء اللّه على قطعها، ثم بعد ذلك اختلفا فى مقدار الممسوح منها .

٩ـ النظر فى عواقب قصر النظر أو ضيق الأفق ، سواء على العاملين ، أو على العمل الإسلامى على النحو الذى شرحنا آنفا، فلعل ذلك يشحذ الهمم، أو يحرك العزائم فتسعى إلى سعة الأفق ، ونفاذ البصيرة .

---

(١) انظر : أحداث صنعت التاريخ ١ / ١٩١ ، ١٩٢ .